تقرير

خليل حرب
khalilharb66@gmail.com

إيران وأميركا: من الودّ والتحالف إلى طعنة مصدق واغتيال خامنئي

بلدان كانا صديقين منذ القرن 19، بل ان الايرانيين والاميركيين تبادلوا الكثير من الود والرهانات، بما ذلك التحالف في سياق "الحرب الباردة" لاحقا. لكن المكيدة الاميركية ضد محمد مصدق، ثم الثورة التي اطاحت الشاه رضا بهلوي، بدلتا صورة كل منهما تجاه الاخر، فهذه "عضو في محور الشر" وتلك "الشيطان الاكبر"

في بداية العام 1979، مع تساقط نظام الشاه، اجرى الصحافي الراحل طلال سلمان مقابلة استثنائية في جريدة "السفير" مع السيد الخميني الذي كان مفجر الثورة ضده من منفاه الفرنسي في نوفل لو شاتو، والتي عكست الكثير من افكار الجمهورية الاسلامية التي ستنشأ لاحقا، والتي ربما لا تزال تعكس الكثير من نظرة النظام الايراني ازاء الولايات المتحدة، حتى يومنا هذا.

يقول السيد الخميني في المقابلة مذكرا بقانون الامتيازات الخاص بالاميركيين في إيران، الذي طبقه الشاه المخلوع منذ العام 1964 حيث امم ايضا الاراضي وحرم منها الفلاحين وسلمها الى الشركات الاميركية والصهيونية: "لقد منحوا الاميركيين بجميع فئاتهم من خبراء عسكريين وفنيين واداريين وخدم، وكل من له ادنى علاقة بهم، الحصانة القضائية، فلا يمكن بعد ذلك ان يطال أي أحد منهم بأي جريمة يرتكبها فوق ارض ايران.. وليعلم رئيس جمهورية اميركا، اليوم انه أقذر انسان على وجه الارض لدى الشعب الايراني بسبب هذه الجريمة والمظالم التي اوقعها ويوقعها بنا.. لقد مضى زمن الامتيازات الاجنبية، ولن يعود.. ان معظم مصائبنا من اميركا، ومن اسرائيل التي هي جزء لا يتجزأ من اميركا.. والوزراء والنواب (الايرانيون) عملاء لأميركا والا فلم لا يقفون بثبات ويتصدون للطغيان؟".

المرارة الواضحة في كلام الخميني، كانت تعكس- وربما لا تزال - مشاعر الغضب بين العديد من الايرانيين الذين لا تزال ذاكرتهم حية، عندما شاهدوا الولايات المتحدة تتحكم بمصائر وموارد بلادهم، وعندما تجرأ زعيم لهم، اي محمد مصدق، على تصحيح الاجحاف القائم، مستندا الى قاعدته الشعبية التي انتخبته، سارعت الى الاطاحة به وبحكمه في العام 1953.

من المهم فهم هذه الخلفية للالمام بالمشهد الايراني، وانتقال علاقات "الحلف" التي نشأت بين الولايات المتحدة وإيران، الى مرحلة الثورة والعداء والقطيعة ثم الحرب الحالية.

لكن مسار العلاقات الإيرانية - الاميركية، كان حافلا بالتحولات والاحداث طوال أكثر من 100 عام، لتتأرجح ما بين التقارب الحذر، والتحالف الاستراتيجي، والعداء المطلق، وصولا الى حرب العام 2025 ثم الحرب الاميركية - الاسرائيلية ضد ايران في 28 شباط 2026، وصولا الى توقيع "مذكرة التفاهم" التي انبثقت من مسار اسلام اباد.

في القرن 19، كانت إيران تعرف باسم بلاد فارس، واتسمت العلاقات مع الولايات المتحدة بالكثير من الايجابية والتعاون الودي، حيث كانت طهران تنظر الى واشنطن باعتبارها "القوة الثالثة" القادرة على التقرب منها لموازنة الاطماع الاستعمارية التاريخية لبريطانيا وروسيا بايران واراضيها وثرواتها.

لكن الجذور تعود الى القرن 19 من خلال الارساليات والروابط الثقافية المبكرة والتعليم، حيث كان التواصل الاول عبر المبشرين البروتستانت الاميركيين في إيران خلال ثلاثينات القرن 19، حيث تركزت جهودهم الاولى على العمل التعليمي والانساني، فأسسوا مدارس ومستشفيات حديثة، وساهم هذا التفاعل في خلق انطباع شعبي ايراني ايجابي عن الاميركيين باعتبار ان هدفهم الاعمار والمساعدة، وليس استعمار بلادهم.

في العام 1851 تقربت الحكومة الايرانية من واشنطن لفتح قنوات ديبلوماسية، وقد أثمر عن توقيع اول معاهدة للصداقة والتجارة بين البلدين في اسطنبول (القسطنطينية وقتها) في العام 1856. وكان اول سفير ايراني يرسل من جانب الشاه ناصر الدين شاه القاجاري، هو ميرزا أبو الحسن شيرازي في العام نفسه، لكن في العام 1883 كان صمويل بنجامين اول مبعوث ديبلوماسي رسمي للولايات المتحدة في إيران، ثم اعلن قيام العلاقات الديبلوماسية بين البلدين رسميا في العام 1944.

عند تعيين السفير الايراني في واشنطن، استطلعت إيران امكانية اقامة تحالف عسكري مع واشنطن لحمايتها من التدخلات البريطانية، لكن الولايات المتحدة فضلت الحفاظ على طابع اقتصادي وديبلوماسي ناعم لعلاقاتها. في الوقت نفسه، فان السفير الاميركي الاول في طهران، ركز مهامه على رعاية المصالح التجارية الاميركية المتنامية ومتابعة شؤون الجاليات الارسالية، وكان يحظى بترحيب كبير من البلاط القاجاري الذي طالما بحث عن شريك دولي بعيد جغرافيا وليست لديه اطماع استعمارية في الاراضي الايرانية، على غرار البريطانيين والروس.

من المعلوم ان إيران خلال القرن 19، وقعت ضحية لـ "اللعبة الكبرى" والمنافسة الشرسة بين الامبراطوريتين البريطانية والروسية، واللتين اقتطعتا اجزاء من الاراضي الايرانية وتدخلتا في اقتصادها. وتنامت في مقابل ذلك، بين النخب الايرانية "استراتيجية القوة الثالثة" التي تقوم فكرتها على جذب قوة عالمية صاعدة ومحايدة مثل الولايات المتحدة لتقديم الاستشارات المالية وبناء البنية التحتية، واضعاف الهيمنة الروسية - البريطانية، وهو توجه ايراني استمر حتى مطلع القرن 20 من خلال استقدام الخبراء الماليين الاميركيين مثل مورغان شوستر لوقف الانهيار الاقتصادي والتخبط المالي واصلاح الخزانة الايرانية، وذلك مع تفاقم الغضب في الشارع، مما اجبر شاه ايران وقتها في العام 1906، على القبول بدستور جديد ينص على انشاء برلمان ليتحول النظام الى "الملكية الدستورية" والذي لم يدم طويلا بسبب التدخل العسكري البريطاني والروسي المباشر.

بهذا المعنى، فان القوتين الاستعماريتين، بريطانيا وروسيا، ساهمتا بشكل او بآخر في دفع الايرانيين اكثر باتجاه "استراتيجية القوة الثالثة" والميل باتجاه الاميركيين، وهي علاقات اتخذت طابعا اكثر تبلورا مع نهايات الحرب العالمية الثانية عندما اعلنت العلاقات الديبلوماسية في العام 1944، حيث بدأت واشنطن تتوغل اكثر في الشرق الاوسط، وصعدت اهمية منابع النفط في انحاء المنطقة، وليس في ايران وحدها، وانما في دول وامارات

> **مرارة الخميني قبل نجاح الثورة**

شعور دائم بالخسارة

تعامل بعض أبرز المؤرخين والمحللين للعلاقات الاميركية - الايرانية بكثير من الشعور الدائم بالخسارة، وما كان يمكن أن يكون بين البلدين. فقد عنون باري روبين كتابه عن هذه العلاقة بـ"مُعبّد بالنوايا الحسنة"، بينما عنون جيمس بيل كتابه "النسر والاسد.. مأساة العلاقات الإيرانية - الاميركية". غاري سيك، العضو السابق في مجلس الامن القومي، عنون كتابه بـ"المواجهة المأساوية لأميركا مع ايران". اما كتاب باربرا سلافين فقد حمل عنوان "اصدقاء مريرون، اعداء حميمون".

وممالك الخليج ايضا، فاكتسب الحضور الاميركي في ايران ابعادا جديدة اكثر اهمية من عمليات التبشير والعلاقات الثقافية والاقتصادية.

خلال فترة حكم الشاه محمد رضا بهلوي، كانت ايران تعتبر الحليف الاقوى للولايات المتحدة في الشرق الاوسط، وركيزة اساسية لاحتواء النفوذ السوفياتي خلال الحرب الباردة التي انبثقت في ما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. لكن الولايات المتحدة فرضت حضورها بقوة في الاقتصاد الايراني، وخصوصا في قطاعه النفطي، حيث نشطت شركات اميركية مثل "اكسون" و"شيفرون" و"تيكساكو" و"غالف اويل" و"موبيل"، خصوصا بعد تأميم النفط الايراني لانهاء الاحتكار البريطاني للنفط الايراني، واستمر عمل هذه الشركات حتى قيام الثورة الاسلامية في العام 1979.

لكن جذور التدخل الاميركي العميق وفظاظته تجلت في العام 1953، عندما قادت وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية "سي اي ايه"، بالتعاون مع الاستخبارات البريطانية ما عرف باسم "عملية اجاكس" للاطاحة بحكومة رئيس الوزراء المنتخب ديموقراطيا محمد مصدق، بعد قراره بتأميم النفط، وهو انقلاب قاد الى اعادة الشاه الى سدة الحكم كحاكم مطلق، مما حفر عميقا في وجدان الايرانيين بأن تجربتهم الديموقراطية طعنت في ظهرها، ومن الدولة التي كانوا في العقود الماضية يتعاملون معها، كعامل توازن يحميهم من اطماع البريطانيين والروس، وحرك الاستياء الشعبي ضد التدخلات الاميركية، وسياسة الغرب تجاه بلادهم.

هذا ليس تفصيلا في بلد كايران، يمثل حضارة وامبراطورية ازدهرت لآلاف السنين. وقد اظهر الانقلاب على مصدق، ان البلاد تحت وطاة قبضة اميركية محكمة في كل المجالات تحت ستار التحالف بين واشنطن ونظام الشاه.

وقد دعمت واشنطن منذ الخمسينات والستينات، ايران عسكريا وادخلتها الى مجال التكنولوجيا النووية السلمية ضمن برنامج "الذرة من اجل السلام". وكانت ايران فعليا في المعسكر الغربي، تستفيد منها واشنطن والغرب في مواجهة النفوذ السوفياتي، وايضا في "ترهيب" دول الخليج وفرض الهيبة الغربية على منابع النفط في المنطقة، من خلال اداء دور "شرطي الخليج". ◄

من تجليات دوران ايران في المحور الغربي، قيادتها في العام 1955 لما سمي "حلف بغداد" الذي ضم ايضا العراق وتركيا وبريطانيا وباكستان، واستخدم كتحالف للتصدي للنفوذ الشيوعي والسوفياتي في انحاء الشرق الاوسط الاوسع، اضافة الى التصدي لمد القومية العربية الصاعدة، خصوصا في مصر وسوريا ولبنان وغيرها، وايضا لاضعاف العداء المستحكم ضد اسرائيل التي نشأت حديثا على ارض فلسطين، والذي في اطاره اصبح الموساد الاسرائيلي فاعلا داخل المجتمع الايراني، وساهم في انشاء وتدريب جهاز السافاك الايراني السيىء السمعة الذي استخدم لقمع المعارضة الايرانية.

لكن ذلك لم يدم. فقد شكل العام 1979 نقطة تحول كبرى اطاحت بنظام الشاه، وصعود السيد الخميني الذي سرعان ما وصف الولايات المتحدة بأنها "الشيطان الاكبر". وقد قادت احداث الثورة لاحقا الى اقتحام السفارة الاميركية في طهران من جانب الطلاب الايرانيين الغاضبين من احتمال احتضانهم للشاه المخلوع، وربما تكرار تجربة "مصدق- 2".

وقد قاد هذا الاقتحام واحتجاز الاميركيين رهائن لمدة 444 يوما الى ازمة كبرى، حيث قطعت العلاقات الديبلوماسية في العام 1980، وهي ازمة ساهمت ايضا في خسارة جيمي كارتر فرصة العودة كرئيس الى البيت الابيض.

وضعت العلاقات الإيرانية - الاميركية تحت اختبار لا يقل خطورة مع اندلاع الحرب العراقية - الايرانية، حيث كان من الواضح انحياز واشنطن الى الرئيس العراقي صدام حسين، بل وربما تشجيعه على غزو الاراضي الايرانية، فيما لم تكن جمهورية الثورة الايرانية قد وقفت على قدميها بعد. قادت هذه الحرب الى تورط اميركي مباشر فيها من خلال ما سمي بـ"حرب الناقلات" حيث اندلعت اشتباكات مباشرة بين القوات البحرية الاميركية والايرانية في مياه الخليج، فيما اسقطت بارجة اميركية في العام طائرة ركاب مدنية ايرانية بصاروخ، مما اسفر عن مقتل 290 شخصا.

انتهت تلك الحرب في العام 1988، لكن الايرانيين لم يتمكنوا من تجاوز وقوف الولايات المتحدة ضدهم في تلك الحرب، وصولا الى استخدام صدام حسين الاسلحة الكيميائية ضد المدن الايرانية.

ستجري احداث هجمات 11 ايلول في العام 2001، فيما كان المحافظون الجدد يمسكون بالبيت الابيض، واندفع الرئيس الاميركي جورج بوش لإدراج ايران في ما اسماه "محور الشر" الذي ضم ايضا العراق وكوريا الشمالية.

كما سيتحقق ما بدا انه انفراجة تاريخية في العلاقات الإيرانية - الاميركية خلال عهد الرئيس الاميركي باراك اوباما من خلال التوصل الى "خطة العمل الشاملة المشتركة" (الاتفاق النووي) في العام 2015، والتي التزمت فيها إيران قيودا على برنامجها النووي، والتزام فتوى المرشد الاعلى السيد علي خامنئي بتحريم امتلاك القنبلة النووية.

لكن الإنفراجة لم تدم طويلا، حيث جاء دونالد ترامب الى الرئاسة، وقرر في العام 2018 الانسحاب من الاتفاق النووي، واعاد سياسة تطبيق العقوبات الصارمة على ايران، ثم بعدها بعامين اغتيال قائد قوة القدس الايراني الجنرال قاسم سليماني، مما ادخل المنطقة في مرحلة توتر جديدة، وخطيرة. فالاميركيون قتلوا أبرز قائد عسكري ايراني، والسيد خامنئي امر بقصف القواعد الاميركية في العراق تحديدا قاعدة عين الاسد في الانبار، لتصبح رغم محدودية أثرها بحسب تأكيدات الاميركيين المرة الاولى التي تتعرض فيها قاعدة عسكرية اميركية لهجوم بصواريخ باليستية.

عاد ترامب مجددا الى البيت الابيض، ونفذ هجومه المشترك مع اسرائيل على ايران في حزيران 2025 لمدة 12 يوما. ثم جدد الهجوم في 28 شباط الماضي، لاغتيال السيد خامنئي وكبار القادة العسكريين والاميركيين مما أشعل حربا استمرت 40 يوما، وانتهت بمذكرة تفاهم اسلام اباد.

حوار مع الخميني في لحظة سقوط الشاه وعشية قيام الجمهورية الاسلامية:
لن نترك المجال فارغاً أمام رجال أميركا
الجيش ؟! لن يستمر في مساندة الشاه، وقد بدأ يلتحق بالشعب وثورته
الشاه لم ينقل الحضارة الغربية بل عمل على تفريغ الانسان وتجريده من هويته